مهمّات مشبوهة في الديار المقدسّة (٤)

بيركهارت: المستشرق الرحالة... في خدمة الدوائر البريطانية!

حسن السعيد

في الثامن عشر من تموز (يوليو) ١٨١٤م. نزل في جدّة أحد أخطر الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوي محمد علي باشا، ثمّ قصد مكة المكرمة؛ لإداء فريضة الحج على مايدّعي متخفياً تحت اسم مستعار هو «الشيخ إبراهيم».

إنّه الرحالة السويسري الأصل البريطاني الجنسية «يوهان لودنج بيركهارت» أهم الرحالة الأوربيين، وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهم صيتاً وشهرة.

فمن هو بيركهارت هذا؟

وماهي طبيعة مهمته ؟

وماذا أنجز منها ؟

بطاقته الشخصيّة

يسميه الإنجليز «جون لويس»، مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان عام ١٧٨٤م، وتخرّج من ليبزيج وغوتنجن في الكيمياء، وزار انجلترا وتعلّم في كمبردج الطب وعلم الفلك واللغة العربية (١٨٠٦ ـ ١٨٠٩م)، وتجنّس بالجنسية

البريطانية، ثمّ قصد حلب حيث أتقنَ اللغة العربية، وقرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي، وتظاهر باعتناقه عام ١٨٠٩م، وتسمى بإبراهيم بن عبد الله.

زار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمالي السودان، ثمّ مضى إلى الحجاز، فأدّى مناسك الحج!، ليعود إلى القاهرة عام ١٨١٥م، وقد أخذ منه الاعياء كلّ مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في حزيران (يونيو) ١٨١٦؛ ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة عام ١٨١٧م.

تلك هي ـ باختصار شديد ـ أبرز محطات حياة بيركهارت، وبالإمكان القول: إنّ بيركهارت يُعدّ نقلةً نوعيّة، في تأريخ الرحّالة الأُوروبيين؛ وذلك لتضافر ثلاث حلقات تمازجت فتكاملت.. فكان بيركهارت.

فمن طبيعة المناخ الدولي الذي شهدته اوروبا عقب حملة نابليون على مصر، وماأفرزته من تداعيات، على صعيد التنافس بين الدول الكبرى، لا سيما بين فرنسا وبريطانيا.

إلى طبيعة الإعداد الخاص الذي تلقّاه بيركهارت في أروقة لندن وجامعة كمبردج بالذات، تمهيداً لتكليفه بمهمّة خاصة، ليست بمنأى عن الاستخدام الاستعماري للحقول الاستشراقيّة.

ثمّ إنّ طبيعة الاستعدادات الخاصة لدى بيركهارت؛ من نزوع إلى المغامرة، وشغف بالعلم، وقدرة على تحمّل الصعاب، ومهارة مدهشة على التخفّي بعباءة الإسلام، ومَلَكَة عالية لقراءة الحاضر والمستقبل.. كلّ ذلك أضفى على طبيعة مهمته أهمية خاصة؛ نظراً لأنها دشّنت مرحلة جديدة في تأريخ الاستشراق.

ولابدّ من إلقاء بعض الأضواء الكاشفة، ولو بشكل سريع:

حملة نابليون: تداعيات التنافس

كان احتلال نابليون مصر عند مطلع القرن التاسع عشر

(١٧٩٨ ـ ١٨٠١) منطلقاً لمرحلة جديدة من العلاقات الفرنسية مع الامبراطورية العثمانية، التي تميّزت بمزيد من التركيز والحزم. ومنذ ذلك الحين أدركت فرنسا أنّ دورها لم يعد يقتصر على حماية الكاثوليك، بل عليها أن تناضل في سبيل الحفاظ على هيبتها ونفوذها، في وجه المنافسة العنيفة الجديدة، في الامبراطورية العثمانية، من قبل دول عظمى كروسيا وبريطانيا وألمانيا.

وقد كتب المؤرخ تويبني يقول: «... كانت الضربة الحاسمة غزوة نابليون لمصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)، تلك الغزوة التي تركت طابعاً لا يُمحى على الخيال الشرقي، ولم يكن لهزيمة فرنسا، في المرحلة الأخيرة من مراحل حروب نابليون أي أثر سيّئ في محو هذا الطابع. وكانت بريطانيا العظمى التي كانت قد أتمّت ثورتها الصناعية، في أثناء حرب ١٧٩٢ ـ ١٨١٤، قد انتزعت من فرنسا حصّة الأسد في التجارة مع بلدان المشرق. غير أنّه لجميع الشعوب الشرقية غربي برزخ السويس، وغربي نهر الفرات ظلّت اللغة الفرنسية والآداب الفرنسية، والنظريات السياسية الفرنسية، منبع الحضارة الغربيّة[1].

يقول البروفيسور ادوارد سعيد: «إذا اتخذنا حملة نابليون.. تجربة أولى مقوية للاستشراق الحديث، فإننا نستطيع أن نعتبر إبطالها المدشّنين ـ في الدراسات الإسلامية، ساسي ورينان ولَيْن[2] ـ بناة للحقل، خالقين لتراث، وأسلافاً للأخوة الاستشراقية. ومافعله ساسي ورينان ولَيْن هو أنّهم منحوا الاستشراق أسساً علمية وعقلانية. وقد نتج عن ذلك لا كتاباتهم النموذجية وحسب بل خلقُ مفردات وأفكار يمكن أن تستعمل بصورة لا شخصانية، من قبل أي إنسان يرغب في أن يصبح مستشرقاً، وكان تدشينهم للاستشراق انجازاً كبيراً؛ إذ إنه جعل وجود مصطلحات علمية أمراً ممكناً، ونفى التعقيد الابهامي وأنشأ شكلاً

خاصاً من الاضاءة للشرق، وأسس شخصية المستشرق بوصفه السلطة المرجعية المركزية للشرق؛ ومنح الشرعية لنمط خاص من العمل الاستشراقي الذي يمتلك انسجاماً وتماسكاً محددين؛ وأدخل إلى مجال الاستعمال الثقافي نوعاً من العملة النقدية الاستطرادية أصبح الشرق، بسبب حضورها، من يتحدّث، منذ الآن، باسمه؛ وفوق كلّ شيء، فإنّ عمل المدشنين قد اقتضى حقلاً دراسياً وعائلة من الأفكار، كان بمقدورها هي بدورها أن تشكّل مجتمعاً من الباحثين كانت الوشائج بينهم، وكان تراثهم، وطموحاتهم، في آن واحد، داخلية تنبع من الحقل الدراسي، وخارجية بما يكفي لضمان التمتع بمزايا خاصة. وبمقدار ماازداد فرض اروربا لنفسها على الشرق وعبورها لحدوده، خلال القرن التاسع عشر، بمقدار ماازداد اكتساب الاستشراق للثقة العامة بهِ[٣].

وحين نبدأ بمعاينة الاستشراق بوصفه نمطاً من الإسقاط الغربي على الشرق وارادة السيطرة عليه؛ فلن يواجهنا إلّا عدد قليل من المفاجآت، وذلك أنه إذا كان صحيحاً أنّ مؤرخين مثل ميشليه، ورانكه، وتوكفيل، وبيركهارت، يحبكون سردهم «كقصة من نمط خاص» فإنّ الشيء نفسه يصدق على المستشرقين الذين حبكوا التأريخ الشرقي، والشخصية الشرقية، والمصير الشرقي لمئات من السنين.

لقد أصبح المستشرقون، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جماعة أكثر جديّة؛ لأنّ آماد الجغرافيا التخيليّة والواقعية كانت، بهذا الوقت، قد تقلّصت، إذ إنّ العلاقة الشرقية ـ الاوروبية كانت قد تحدّدت بتوسّع أوروبي لا يُصَدُّ بحثاً عن الأسواق، والمصادر الطبيعية، والمستعمرات. وأخيراً؛ لأنّ الاستشراق كان قد انجز تقمصه وتحوّله من إنشاء بحثي إلى مؤسسة امبريالية[٤].

وهكذا غدا التراث الاستشراقي

بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه واذلالها «فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً. فالمعرفة تمنح القوة. ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة.. فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية[٥]».

ابحثوا عن التبشير.. و عن كمبردج

وفيما يخصّ بحثنا، وتحديداً الموقف البريطاني، الجهة المموّلة والمكلّفة لبيركهارت في مهمته، فمرة أُخرى؛ كانت القوتان الاستعماريتان الرئيسيتان بريطانيا وفرنسا، رغم انّ روسيا وألمانيا لعبتا بعض الدور كذلك.

وكان الاستعمار في البدء يعني تمييزَ بل، بالفعل، خلقَ المصالح وتحديدها؛ المصالح التي قد تكون تجارية، أو دينية، أو ثقافية، أو متعلقة بالاتصالات، فقد شعرت بريطانيا، مثلاً، فيما يتعلّق بالإسلام والبلدان الإسلامية أنها، بوصفها قوة مسيحية، ذات مصالح مشروعة ينبغي المحافظة عليها. وقد نما جهاز معقّد لرعاية هذه المصالح. فبعد المنظمات المبكّرة مثل «جمعية نشر المعرفة المسيحية» (١٦٩٨)، و «جمعية نشر الإنجيل في المناطق الأجنبية» (١٧٠١)، تشكّلت جمعيات دعمتها مثل «جمعية التبشير الإنجيلية» (١٧٩٢)، «جمعية التبشير الكنيسية» (١٧٩٩)، «جمعية الكتاب المقدّس البريطانية والأجنبية» (١٨٠٤) و «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» (١٨٠٨). وقد شاركت هذه الارساليات بصورة صريحة في التوسّع الاوروبي.

فإذا أضفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفقهة، ومؤسسات الإستكشاف الجغرافية، ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس، والبعثات، والمكاتب القنصلية، والمصانع، والجاليات

السكانية الاوروبية الواسعة، أحياناً، في الشرق، فإنّ مفهوم «المصلحة» يكتسب قدراً كبيراً من المعنى. ولقد أصبحت هذه المصالح تُحمىٰ، فيما بعد، بحماسة شديدة ونفقات عالية[٦].

ومن هنا، لسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ الطابع السياسي العسكري قد غلب على مجمل العلاقات البريطانية مع الشرق، والذي تُوّج بالغزو العسكري الاستعماري، بعد أن مثّل مستشرقو بريطانيا طليعة هذا الغزو وجهاز الرصد والاستطلاع لنجاحه. وكان معظم هؤلاء المستشرقين ـ إن لم نقل جميعهم ـ قد تخرجوا من المعاهد البريطانية ومؤسساتها، للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية تحت ستار العلم والاكتشاف[٧].

ويأتي في مقدمة المعاهد البريطانية، التي خدمت المصالح البريطانية في الشرق صرحان أكاديميان هما: جامعة أكسفورد التي يعود تأسيسها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وجامعة كمبردج التي تأسست سنة ١٢٥٧م.

وفيما يتعلّق الأمر بالجامعة الأخيرة، لأنّ بيركهارت، أحد أبرز خريجيها، فلقد كانت أوّل ماأسست كرسيّاً للدراسات العربية في بريطانيا، وكان ذلك سنة ١٦٣٢، بفعل «السير توماس آدامز» الذي كان من كبار تجّار الجوخ في بريطانيا.

وطبيعي أن لا يكون الهدف «العلمي الصافي» هدفاً أساسياً وراء هذا التأسيس، بل يتجاوزه إلى الناحية التجارية ثمّ السياسية والعسكرية أيضاً. وهذا ماعبّر عنه بكلّ وضوح، دون أي لبس أو غموض، أوّل استاذ قام بترأّس كرسي للدراسات العربية في جامعة كمبردج، وهو «ابراهام ويلوك» في رسالة موجهة إلى مؤسسها «آدامز» بقوله :«إنّها لا تهدف فقط تنشيط الآداب ونشر المعرفة، ولكن أيضاً لخدمة الملك والدولة في مجال التجارة مع البلدان الشرقية، وتوسيع آفاق

الكنيسة ونشر الديانة المسيحية بين القابعين في الظلام».

وبدأت بريطانيا تتطور في هذا المضمار، كما بدأت تطوّر من أساليبها أيضاً، خصوصاً بعد أن برز عدد من المستشرقين فيها على جانب كبير من الأهميّة... ولعلّ أهم حادثة جرت في القرن الثامن عشر، بالنسبة إلى الاستشراق، هي تأسيس «الجمعية الآسيوية في البنغال» سنة ١٧٨٤، على يد السير وليم جونز.

في هذا الإطار، أنّ عدداً من مستشرقي هذا العصر كانوا ممّن عملوا في السلك الدبلوماسي، أو ممّن انخرطوا في سلك الجندية، وعملوا في خدمة التاج البريطاني كضباط، أو كانوا أبناء ضباط، أو موظفين في وزارة المستعمرات البريطانية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر شرعت جامعة كمبردج، تحت قيادة «ادوارد غرنول براون»، في تنظيم دروس للموظفين الملحقين في السلك القنصلي في المشرق، والذين سيتولون أعمال الترجمة، وهكذا كان ينظر إلى تعلّم لغات الشعوب الإسلامية في كمبردج من ناحية تطبيقية، وليس فقط من الناحية الأكاديمية، كما كانت الحال في سائر الجامعات البريطانية[٨].

والسؤال المطروح هو: أين موقع بيركهارت من كل هذا؟

في خدمة الامبراطورية العظمى

ثمّة تجربة مريرة عاشتها عائلة بيركهارت، تركت آثارها العميقة على توجهاته، تلك هي أنّ عائلته أُجبرت على الفرار من موطنها سويسرا، بعد الاحتلال الفرنسي، واستقرت في ألمانيا، حيث أكمل بيركهارت دراساته، قبل انتقاله إلى بريطانيا.

ولكن... لماذا انتقل بيركهارت إلى بريطانيا؟

وهل هناك علاقة بين هذا الانتقال وحالة العداء الذي يضمره لفرنسا التي احتلت دياره، وسبّبت مأساة التشريد لعائلته؟!

وهل لعب والده، الذي كان

ضابطاً في الجيش، دوراً في دفع ابنه إلى التوجه لخدمة التاج البريطاني، بغضاً بعدوّه التقليدي فرنسا؟

ليس بين أيدينا أدلّة وثائقية، بيد أننا نميل كثيراً إلى أنّ الدافع الأكبر لانتقال بيركهارت، ومن ثمّ تجنّسه بالجنسية البريطانية، لم يكن علمياً بحتاً، خاصة وأن لندن كانت مزدهرة، في تلك الفترة، بنشاط محموم لتدجين المشرق وتحويله إلى «حقل للعلم الأوربي» كما يقول ادوارد سعيد[٩]، وذلك في ظل التنافس المتزايد بين بريطاينا وفرنسا.

في لندن تعرّف بيركهارت إلى سير جوزيف بانكس عضو الجمعية الأفريقية، التي كانت موّلت رحلات استكشافية سابقة إلى منطقة النيجر، انتهت جميعها بوفاة المستكشفين. أمّا الباحث البريطاني «بيتر برينث»فيؤكّد أنّ بيركهارت قد ذهب إلى لندن؛ لوضع نفسه تحت تصرّف الجمعية الأفريقية.. وكانت هناك مجموعة من العلماء والتجار الارستقراطيين نصف الامبرياليين تتوق لحل سر غموض افريقيا الغربية ومجرى نهر النيجر، وذلك لنشر النفوذ البريطاني على ضفاف ذلك النهر.

كان أحد الطرق إلى ذلك النهر لا يقع إلى الشرق من سواحل غامبيا، وهو الطريق الذي سلكه هوثورن وبارك من قبل، بل يقع في جنوب غربي مصر، عبر واحة فزان ومنها إلى النهر. وهناك كانوا يأملون أن يجدوا الطريق في مكان ما فيما وراء الصحراء، حيث توقع أولئك الذين يسلكون هذا الطريق أن يجدوا تمبكتو على أحد جانبيها، ومصب النهر المجهول على الجانب الآخر[١٠].

وعندما قدّم بيركهارت فكرته ببلوغ تمبكتو بمرافقة قوافل الحجاج العائدة من مكة المكرمة تبنتها الجمعية، ووظفته بقيمة جنيه استرليني في اليوم[١١]. وما ان قبلت الجمعية الجغرافية بيركهارت كممثل لها، في هذه المغامرة الخطرة، حتى قرر أن يعدّ نفسه اعداداً كافياً لتلكَ الحياة

المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التي تنتظره[١٢]. فالتحق بجامعة كمبردج عام ١٨٠٨؛ لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم أُخرى. وراح يعوّد نفسه على الحياة الصعبة[١٣]، حتى وهو في انكلتره، نجد أنه قيّد حياته بقيود جعلته يهجر حياة الترف الغربيّة، فينام على الأرض مثلاً، ويمشي ساعات طويلة، ويأكل الخضر فقط[١٤]، ليخطو بعد ذلك أولى خطواته تجاه شواطئ آسيا، وهو يحمل في جوانحه المعتقدات العنصرية للغرب، من قبيل نظرية التفوّق القائمة على قانون المركز والأطراف ونهب الثاني لحساب الأوّل، ومن قبيل أنّ الغرب هو موطن الحضارة؛ لذا فبريطانيا (رائدة الغرب) مدعوّة لحمل رسالة (الرجل الأبيض) ولقيادة (البرابرة) و (المتوحشين) نحو الحضارة!!

وليس من شك أنّ كلّا من هذه الاستعدادات والتصورات تنطوي على مهمّة سريّة ليست عادية، إذ ماعلاقة اللغة العربية بعلم الفلك؟ وماذا يربطها بالطب؛ ليتعلمها بيركهارت في وقت واحد، وفي كمبردج صاحبة التأريخ العريق في المبادرات الاستعمارية، ومحاولات تشويه الإسلام؟!

إنّ بعضاً من خفايا المشهد الخلفي لمهمة بيركهارت يتضح حينما نعلم أنّ بريطانيا كانت وقتئذٍ، مدفوعةً بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولموجهة المضايقة والنفوذ المتزايدين من فرنسا، أو محاولة إيقافه من جهة أُخرى إذ إنّ فرنسا، بعد هزيمتها في الهند، عملت على مضايقة الجزء الشرقي من الامبراطورية البريطانية باعتراض طرقها عن طريق مصر المسلمة، لكلّ هذا أخذت بريطانيا تظهر مزيداً من الاهتمام بالمشرق، ولا سيما مصر[١٥].

وفي الوقت الذي كانت فيهِ شبه الجزيرة العربية تشهد احتدام المواجهة بين محمد علي باشا والوهابيين، الذين مدّوا سيطرتهم من نجد إلى الحجاز..

وصل الشام أحد الرحالة الذي امتاز بالذكاء والنشاط وتعدّد المواهب، فأصبح مثالاً ونموذجاً لأُولئك الذين حاولوا اختراق شبه الجزيرة العربية، وإثبات مصداقية الاسطورة العربية(١٦).

ولم يكن هذا الرحالة سوى بيركهارت، الذي بدأ مهمته في مدينة حلب السوريّة... وليشرع في مغامرته الكبرى.

الشام: خطوة في مسيرة الألف ميل

أمضى بيركهارت سنتين في هذه المدينة، وهناك أتمّ ثقافته ليس في اللغة العربية فحسب، بل في آداب اللغة العربية ولا سيما القرآن الكريم وتفاسيره، لدرجة أنّه استطاع ان يستحوذ على احترام أُولئك الذين كانوا يحرصون على النقاش في المعاني الداخلية لأي نص من النصوص، فقد ظهرت مهارته واتقانه في هذا المضمار(١٧)، كما أظهر براعته عندما أكمل ترجمته لكتاب «روبنسون كروز» ودرس الدين الإسلامي بالجديّة ذاتها. واتخذ لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله.

خلال إقامته في سوريا كان يتجوّل مع البدو، خصوصاً قبيلة «عنيزة». ووصل إلى تدمر والفرات، ونُشرت نتائج زياراته وأبحاثه تباعاً، وهي تشكل اليوم أوّل دراسة اثنوغرافية لقبيلة في الصحراء. وعن ذلك الوقت كتب بيركهارت: «أمضيت بين البدو أسعد الأيام في حياتي. وفي الوقت ذاته أمضيت ساعات صعبة ومملة. وكنت أنتظر ـ في بعض الأيام ـ بفارغ الصبر غياب الشمس؛ لأنني كنتُ أعلم أنّ حفلات الغناء والرقص في المساء ستخرجني من لعبة الداما مع رفاقي(١٨).

وخلال إقامته في سوريا ـ وجزيرة العرب لاحقاً ـ دوّن ملاحظات طريفة عن أعراف وعادات البدو الذين أحبّهم وأُعجب بهم. وكانت ملاحظاته هي أوّل مسعى «موضوعي» لدراسة

المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبدو[١٩].

في شباط (فبراير) ١٨١٢، شعر بيركهارت بأنه مستعد لمتابعة رحلته نحو النيجر، وتحرّك ببطء من سوريا إلى القاهرة، مكتشفاً في طريقه آثار البتراء في الأردن[٢٠]، وبتوغله إلى الجبال المتاخمة للبحر الميت اعتبر أوّل اوروبي شقّ طريقه، خلال تلك الصخور الناتئة، المحيطة بعاصمة الأنباط القديمة التي قهرت «سيتزن»، فلم يستطع الوصول إليها. وقد استطاع أن يرسل وصفاً لمدينة البتراء الأسطورية، مما أدهش العالم حينذاك[٢١].

وبينما كان يستعد للرحيل إلى القاهرة، كانت «الليدي هستر ستانهوب» قافلة من هناك، في طريقها إلى مقر إقامتها في لبنان، حيث كانت هي الأُخرى تقوم بمهمة سريّة، من مفرداتها رصد عيون نابليون من الفرنسيين في الشام، والعمل على استمالتهم، وتجنيدهم كجواسيس لبريطانيا... وأثناء عودة ستانهوب، وفي مدينة الناصرة تحديداً، فوجئت يوماً بدخول شاب غربي السمات، عربي الملبس، قدّم نفسه لها على أنه «الشيخ إبراهيم» وأخذ يحادثها بانجليزية سليمة، ولم يكن هذا الشاب سوى الرحالة الكبير بيركهارت... مكتشف البتراء، وآثار أبي سمبل[٢٢].

وعلى مايبدو أنّ بيركهارت كاشفها بمهمته أو بعض خباياها، وخاصة فيما يتعلق بجهوده المضنية مع بدو الصحراء، وماحققه من إنجاز معهم، بحاجة إلى تواصل وتوظيف. وقد قررت ستانهوب، بعد فترة قصيرة من وصولها لبنان، السفر إلى دمشق، ومنها بدأت اتصالاتها بالبدو، وعقدت معهم صداقات، كما قامت برحلة إلى تدمر.. واتصلت بشيوخ القبائل في بادية الشام، ولم يبخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أوّل أمرأة اوروبية وطئت قدماها أرض مدينة زنوبيا التأريخية[٢٣].

وليس من المستبعد أبداً أن

يكـــون بـــيركهارت قـــد لعب دور العـــرّاب، بـصورة مـباشرة أو غـير مـــــباشرة، في مـــهمّة ســـتانهوب الصحراوية هـذه. كـما أنّ ستانهوب بدورها قد زوّدت بيركهارت ـ عـلى الأرجح ـ بـرسالة خـاصة إلى محـمد عـلي بـاشا، الذي تحـتفظ بـعلاقات وطيدة معه، حتى إنه لم يرد لها طـلباً، على حدّ تـعبيرها[٢٤]، لا سـيما وأنهـا أقامت في ضيافته شهراً كاملاً من تلك السنة، آيار (مايو)، وهاهي قادمة توّاً من القاهرة.

وبـــذا تكـــون ستانهوب قـد اخـــتزلت كـــثيراً مـن الجـهد عـلى بيركهارت، تماماً كـما ذلّـل لهـا، هـو الأخر، كثيراً من المتاعب، في تحركها على بادية الشام.

تطواف في وادي النيل

شقّ بيركهارت طـريقه صـوب القاهرة، بعد أسابيع قليلة مـن لقـائه بستانهوب. وصل إلى هناك في أيلول (سبتمبر) ١٨١٢، وحلم الوصـل إلى تمبكتو يحدوه، ويشـغل كـلّ اهـتمامه، وحال وصوله القاهرة قابل محمد علي باشا، وهو يأمـل أن يجـد طـريقاً أو قافلة تـنقله إلى المـناطق الغـربيّة، في المرحلة الأُولى لرحلته إلى نهر النيجر، ولكن الصحراء الكـبرى تمـتد أمـامه وتقلّل من فرص نجاحه[٢٥].

ولم يمض وقت قصير، حتى علم بـــيركهارت أنّ القـافلة المـتجهة إلى أفريقيا الغربية لن تتحرك قبل حزيران (يـــونيو) ١٨١٣. وهـــذا يـعني أنـه ســـيمكث حـوالى تسـعة أشهـر في القاهرة. لم يـرق لهُ الأمـر، وقـرّر أن ينزل إلى النيل، على أمل إيجاد طريق تتجه غرباً من بلاد النوبة، وفكّر أنّـه حـــتى لو لم يـنجح في ذلك، فـيكون استكشف مناطق جديدة، إذ لم يكـن أي اوروبي دخـل الأراضي الواقـعة جنوب أسوان بعد.

وتمكن بيركهارت مـن اجـتياز ٢٠٠ ميل إلى الجـنوب، مكـتشفاً في طريقه «مـعبد أبي سمـبل». وهـناك واجه صعوبات مع الحكـام المحـليين. وعندما اتضحّ لهُ أن لا مجـال لمـتابعة

سيره جنوباً أو غرباً، قطع النيل صعوداً وعاد إلى نقطة انطلاقه. وفي اسيوط، بعدما اقتنع بأنّ ذهابه إلى افريقياً الغربيّة لن يحصل قبل سنة، اتخذ قرار التوجّه إلى الحجاز، ولعلّ ماشجعه على تغيير وجهته وجود محمد علي باشا هناك، إذ كان يتابع حملته على الوهابيين، ولعلّها الأوامر قد صدرت إليه من مرؤوسيه بالتوجّه إلىٰ مكّة.

وتبعاً لطريقته المنظمة، خلف بيركهارت وصفاً دقيقاً لأمتعته: كان يرتدي قميصاً وسروالاً وعباءة عربية، وعلى رأسه قبعة لفّ حولها قماشة، وحمل معه دفترين وقلماً وسكينة وبوصلة و ٥٠ دولاراً أسبانياً وقلادتين من الذهب. وذكر أيضاً أنّ البضائع والمأكولات التي حملها مع رفاقه لعبور الصحراء النوبيّة، وهي رحلة استغرقت أربعة أشهر، احتوت على ٤٠ رطلاً من الطحين، و٢٠ من البسكويت، و ١٥ من التمر، و١٠ من العدس، و١٠ من الزبدة، و٥ من الملح و٣ من الأرز، و٢ من البن، و٤ من التبغ... كما حمل معه رسائل من محمد علي، باشا مصر لحمايته.

في ٧ تموز (يوليو) ١٨١٤، قطع بيركهارت برفقة العبد الذي كان اشتراه بـ١٦ دولاراً البحر الأحمر، ووصل إلى جدّة بعد ١١ يوماً. وهناك مرض بيركهارت، ثمّ تعرّض لضائقة مالية، إذ انّ التاجر الذي قدّم له الرحالة رسالة الاعتماد رفضها، ولم يسلفه الأموال. فأجبر على أن يبيع عبده بـ٤٨ دولاراً؛ أي ثلاثة أضعاف سعر الكلفة. وفي الوقت ذاته كتب إلى محمد علي باشا مستنجداً به، فاستجاب فوراً لطلبه، وأمر أن يُعطى الأموال والثياب[٢٦].

في جدّة.. والطائف

مكث بيركهارت في جدّة شهراً، وكتب عنها نحو «١٠٠» صفحة واصفاً الحياة فيها والتجارة والعادات[٢٧]، وفي هذا الإطار، وصف تلك المدينة وسكانها، كما وصفها

الآخرون من الرحالة: البنايات الحجرية العالية، الأسوار ووسائل الدفاع التي بدأت بالتهدّم، إلى الأراضي القفراء التي كانت تضمّ وتأوي السكان متعددي الأجناس، الذين أتوا من جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، ومن سوريا وتركيا ومن الهند، ومن جزر الهند الشرقية.

وإضافةً إلى ذلك، فقد استطاع بيركهارت أن ينفذ إلى تفهّم اقتصاد تلك المدينة، وأسباب انحطاطها، والتهديدات التي تستهدف مستقبلها، وإلى حدٍّ ماتوصّل إلى معرفة أسباب فنّ الدراسة الديموغرافية لتلك البلاد (أي دراسة المواليد والوَفيات والصحة والزواج).

وهو يخبرنا عن الأهمية العظيمة، التي وصلت إليها تلك المدينة الصغيرة على الصعيد التجاري، في أوائل القرن التاسع عشر، بسبب موقعها على مفترق الطرق، التي يسلكها الحجاج والتجار من جميع أنحاء العالم.. لم ينسَ أن يطلق نبوءاته، حول قرب تراجع أهمية المركز التجاري لجدّة، كما تنبّأ بأنه عندما تنتهي السيادة العثمانية على الحجاز، والتي دعمها محمد علي بنشاطه، فإنّ العرب عندها سوف ينتقمون لأنفسهم ولخضوعهم للأتراك، مع أنّ ذلكَ الخضوع كان اسميّاً فقط، ولسوف ينتهي الحكم التركي، ولكن سوف يصاحب انتهاءه إراقة الدماء[٢٨].

وراح بيركهارت يصف مدينة جدّة بالتفصيل، بشكل لم يحاول أن يفعله أي رحالة من قبل، ماعدا نيبور، إذ ربّما لم يكن أي واحد من هؤلاء الرحالة يشعر براحة تجعله يلتفت إلى مثل هذه التفاصيل. أو ربّما لم يكونوا متمكنين من ناحية اللغة بشكل كافٍ. ومن بيركهارت علمنا أنّ جدّة تحتوي على عدد الحوانيت التي أحصاها بشكل دقيق، وذكر أصناف المبيعات، وكذلك البضائع المبيعة، ومناطق استيرادها[٢٩].

ومن جدّة سافر بيركهارت إلى

الطائف، وهو يصف مارآه للآخرين أيضاً، وهو ذلك السهل الوعر الكثير الحجارة والغبار والتلال، التي تغطيها صخور الغرانيت والكوارتز اللامع الذي يبهج الأنظار، خصوصاً عند رؤية أشجار النخيل المنتشرة هنا وهناك. ثمّ يصف الوديان الخضر، فيما وراء جبل «القرى» على سفوح تلك السلسلة الجبلية... ورغم اعتدال الطقس، لكن بيركهارت كان يسافر، في معظم الأحيان، ليلاً خوفاً على نفسه من حرارة الشمس[٣٠].

حال وصوله الطائف التقى محمد علي باشا، الذي كان يدير الحملة التي جردتها الدولة العثمانية بقيادته، لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين. وكان محمد علي باشا قد وصل الحجاز في ربيع ١٨١٣، وأقام في الطائف للاشراف على مهمته، والقضاء على الوهابيين في عقر دارهم كذلك[٣١].

سكن بيركهارت عند طبيب محمد علي الأرمني، وأمضى الليلة الأُولى مع الباشا، يتحدثان عن «أمور الدنيا»، وأوضح له محمد علي أنّه يخشى احتلال البريطانيين لمصر، بعد انتصارهم على نابليون، منتهزين قوتهم ومحوّلين الموقف الدولي لمصلحتهم. وكتب بيركهارت عن محمد علي قائلاً: «حاكم عظيم لا يعرف سوى سيفه وكيس نقوده، يسحب الأوّل لتعبئة الثاني»[٣٢].

وفي الطائف اجتمع بأعيان البلد، وكان محمد علي باشا قد جعل الطائف مركز القيادة لجيوشه في حملته على بلاد العرب. وقد نال بيركهارت إعجاب قاضي مكة بعلمه وثقافته[٣٣] حتى انه أعلن لاحقاً أنّ بيركهارت ليس مسلماً فقط بل هو عالم أيضاً[٣٤] كما أنه نال اعجاب محمد علي باشا، بعد أن روى له تلك القصص عن رحلاته. ولكن يظهر أنّ محمد على باشا قد راودته الشكوك بالنسبة لهذا (المسلم) الأجنبي، ومع ذلك فقد كان يصغي بشوق لأي معلومات يُدلي بها بيركهارت. وكان محمد على يلقي عليه

بعض الأسئلة مثلا: «كم يلزم من الجنود لإخضاع بلاد العرب حتى سهل شنغار ؟».. وعندما وصلته نسخة من معاهدة باريس طفق الباشا في درسها مع بيركهارت، وكان الحاكم المصري يأمل أن يتجدّد القتال في اوروبا، حتى تنشغل الدول العظمى بنفسها ولا تتدخل بشؤونه، ولكي يزيد في سعر الذرة التي يصدّرها إلى الخارج[٣٥].

ويُستبان ممّا دوّنه بيركهارت أنّ محمد علي باشا كان يشك في إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج في مكّة[٣٦] وهكذا سنحت له فرصة ثمينة، لإنجاز مهمته الاختراقية.

الحجّ إلىٰ مكّة

بعد مسيرة يومين حافلين بأحوال جوّية غير مناسبة من رياح وأمطار ورعد وبرق، وصل بيركهارت إلى مكة[٣٧]، وكان المستر بيركهارت قد أسلم ـ على مايزعم ـ عند قدومه إلى مصر، في عهد الخديوي محمد علي باشا، وسمّى نفسه الشيخ إبراهيم. ويقول ناشر كتبه الإنكليزية، ويليام أوسلي، في كانون الثاني (يناير) ١٨٢٩؛ إنّ معرفة بيركهارت العربية، واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على تقمّص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكّة، خلال موسم الحج كلّه، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة... وكان بيركهارت نفسه يقول: إنّه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد علي باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته[٣٨].

دخل مكّة في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٨١٤، حيث مكث لغاية كانون الثاني (يناير) اللاحق، والملاحظ مما كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته في مكة كانت مريحة جدّاً، فهو يقول: إنّه لم يتمتع خلال سفراته في البلاد الشرقية كلّها بمثل ماتمتّع به في مكّة من الراحة»، وإنه سيظلّ يتذكر إقامته فيها إلى الأبد، برغم انحراف المزاج

الذي ألمَّ به، فلم يسمح له بالتمتع بجميع ماسمحت له الأحوال التمتع به[٣٩]، وقد كتب: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتي عشتها في مكّة. وسأحتفظ بذكريات جميلة عن إقامتي هنا».

ولا شكّ أن بيركهارت لم يمضِ وقته سُدى، إذ وضع ٣٥٠ صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها... وتركَ وصفاً مفصلاً لبيت الله الحرام الذي تمتع بجماله، خلال ليالي شهر رمضان عندما «تلتمع آلاف الفوانيس في أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمة الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام»[٤٠].

ماتجدر الإشارة اليه، أنّ بيركهارت يشرع بوصف الحج وشعائره قبل وصوله مكة، ويبدأ بذكر مايختصّ بالإحرام بطبيعة الحال. ويستشهد بما رواه المؤرخون عن هارون الرشيد وزوجته زبيدة اللذين قصدا الحج، في سنة من السنين، مشياً على الأقدام من بغداد إلى مكّة، ولم يكن يستر جسمها غير لباس الإحرام، على طول الطريق.

ويأتي بعد ذلك على ذكر التوجه إلى المسجد الحرام، والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة العمرة، ثمّ العودة إلى مكّة، على أنّ بيركهارت يذكر كذلك أنّ الكعبة كانت مكاناً مقدساً في أيام الجاهلية أيضاً، وأنّ الناس كانوا يطوفون حولها بنفس النمط الذي يطوفون فيه حولها اليوم تقريباً، لكن المبنى المقدس كانت تزينه يومذاك ثلاثمائة وستون صنماً، وأن على الرجال والنساء أن يظهروا أمامها عراة كما خلقهم ربّهم؛ ليستطيعوا التجرّد عن الخطايا والذنوب، والتخلّص منها مع الملابس التي يتجردون منها[٤١].

وصف مسهب لمكّة

وبعد أن يشير إلى التقديس والتبجيل اللذين يكنّهما العرب جميعاً لمكّة، وإلى الأسماء التي تطلق عليها مثل: «امّ القرى» و «المشرّفة» و «البلد الأمين»، يأخذ بوصفها من

جميع النواحي، فيقول: إنّ البلدة تشغل فضاءً يبلغ طوله حوالى ألف وخمسمائة خطوة، أي من محلّة الشبيكة إلى نهاية المعلا. لكن جميع مايطلق عليه اسم مكّة، بالمعنى الأوسع، يمتدّ من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدّة) إلى ضاحية المعيدة على طريق الطائف. ويبلغ هذا حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة. أمّا الجبال التي تحيط بهذا الوادي، الذي كان يسميه العرب وادي مكّة أو بكّة، فيبلغ ارتفاعها مابين مئتين وخمسمائة قدم، وهي جرداء خالية من الزرع والشجر. وينحدر الوادي برفق نحو الجنوب، حيث تقع محلّة المسفلة؛ ولذلك يتبدّد المطر الذي يسقط أحياناً على مكة في جنوب مسفلة، في الوادي المكشوف الذي يسمّى وادي الطرفين، وتقع معظم البلدة في ضمن الوادي نفسه.

ويقول بيركهارت: إنّ مكّة يمكن أن تعتبر بلدة جميلة؛ لأنّ شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأُخرى بوجه عام. وبيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشبابيك التي تطلُّ على الشوارع فتسبغ عليها منظراً تملأه الحيوية، بخلاف الدور في مصر وسوريا، التي لا تطلّ على الطرق في الغالب.. وهي مثل جدّة، تحتوي على عدد من الدور ذات ثلاثة طوابق، ويقول كذلك: إنّ مكّة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تكون مانعاً حصيناً ضد العدو، إذا مادوفع عنها بطريقة أُصولية. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها المتطرفة[٤٢]..

ويمضي بيركهارت في التطرق إلى العديد من التفصيلات، كالماء الذي يعتمد عليهِ سكان مكّة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التي يسهب في سرد تأريخها وماشهدته من ترميم وإصلاح، على مرّ التأريخ.

ومن أمتع مايكتبه بيركهارت عن مكّة وصفه المسهب لمحلاتها المختلفة، بعد أن شاهدها بنفسه ودقّق

أحوالها. فهو يقول: إنّ القادم من جدّة إلى مكّة المكرمة يجد في مدخلها برجين عاليين للحرس، كان قد أنشأهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة.

وبعد أن يدخل القادم من بينهما بمسافة غير بعيدة يصادفه موظفو الشرف الذين يجبون الرسوم على البضائع. ثمّ يدخل إلى «حارة جرول» التي يعيش فيها البدو المشتغلون في تجارة النقل مابين مكة وجدّة، وتأتي بعد «حارة الباب» التي تتألف من شارع عريض متسع، يقوم في جانبيه عدد غير يسير من الدور الكبيرة الحسنة «حارة الشبيكة» التي تمتد إلى اليمن في الغالب، ويقول بيركهارت: إنّ هذه المحلة كان أصحاب النبي عليه السلام قد ضويقوا فيها جدّ المضايقة، في حروبهم مع قريش[٤٣].

وعلى هذا المنوال، يمضي بيركهارت في وصف أدق التفصيلات الأُخرى عن مكة وحاراتها أو مطوّفيها، وأسواقها، وسفوحها، وأجهزتها الإدارية، ونفوسها وأماكنها التأريخية... الخ.

حارات مكّة.. ومواقعها التاريخيّة

كان بيركهارت يحرص على رصد كلّ شاردة وواردة في مكة، ويتطرق إلى كلِّ شيء تقع عليه عيناه، أو يتناهى إلى سمعه. ومن ذلك اهتمامه بالواقع المعاش كاهتمامه بالتأريخ الغابر، كلّ ذلك بمنهجيّتة موضوعيّة ونظرة جامعة مانعة. إن صحّ التعبير.

وغالباً نراه يشير إلى المواقع التأريخية المبثوثة في حارات مكة، دون أن يغفل واحداً منها. فمثلاً يقول بالمناسبة: إنّ القمة الغربيّة من وادي الطرفين التي تقابل المسفلة، كانت تقوم فوقها بناية صغيرة وقبة شيّدت لتخليد ذكرى الخليفة عمر بن الخطاب، فصارب تسمى «مقام سيدنا عمر»، لكن الوهابيين حينما استولوا على مكّة، قبل أن يستردّها منهم محمد علي باشا، هدموا هذه البناية والقبة وخربوهما[٤٤].

وفي المحل الذي ينتهي فيه

السعي، من جهة المروة، لاحظ بيركهارت وجود الدار، التي كان يسكن فيها العباس عمّ النبي عليه السلام... وتوجد على مقربة من هذا المكان بركة وسبيل للشرب بناهُ السلطان سليمان القانوني، واستمدّ له الماء من قناة مكة المشهورة...(٤٥).

ويذكر بيركهارت كذلك «زقاق الحجر» الذي يقول: إنّ الزهراء البتول عليها السلام وأبا بكر الصديق قد ولدا فيه. وقد سُمّي الزقاق باسم الحجر الذي كان يحيي الرسول الأعظم كلّما كان يمر به، عند رجوعه من الكعبة على مايُقال...(٤٦).

وعند انتهاء المعلا، وعلى مسافة غير بعيدة من قصر الشريف الكائن في شمال منطقة البرك، يوجد قبر أبي طالب والد الإمام علي عليه السلام، وعمّ النبي الكريم صلوات الله عليه. وقد عمد الوهابيون إلى تقويض البناء الذي كان قائماً فوق القبر، فأحالوه إلى كومة من الأنقاض، ولم يجد محمد علي باشا بعدهم من المناسب أن يعيد البناء إلى سالف عهده. ويقول بيركهارت: إنّ الناس في مكّة يقدسون أبا طالب ويجلّونه غاية الإجلال، ويخشون القسمَ كذباً به.

ويختم بيركهارت بحثه عن حارات مكّة بالإشارة إلى عدد نفوسها، بعد أن يبحث في صعوبة تقدير النفوس في المدن والبلاد الشرقية عامة. وهو يقدّر نفوس مكّة في غير مواسم الحج، في تلك الأيام، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، يُضاف اليها حوالى ثلاثة إلى أربعة آلاف عبد حبشي وغير حبشي، ثمّ يقول: إنّ مكّة كان بوسعها، في تلك الأيام، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً. ويشير كذلك إلى أنّ إحصاءً للنفوس كان قد جرى في عهد السلطان سليم الأوّل (٩٢٣ هـ) فوجد أنّ النساء والرجال والأطفال قد بلغ عددهم حوالى اثني عشر الف نسمة. وهو يروي ذلك عن المؤرخ قطب الدين، الذي يذكر أيضاً أنّ نفوس

مكّة كانت أكثر من هذا بكثير في القرون الخالية؛ لأنّ القرامطة، حينما هاجموا مكة في ٣١٤هـ، بلغ عدد من قُتِلَ بأيديهم من سكان مكة حوالى ثلاثين ألف نسمة(٤٧).

الأماكن المقدّسة

ويخصص بيركهارت في رحلته فصلاً خاصاً لذكر بعض الأماكن والبقع المقدسة التي يقول عنها: إنّ الناس، خلال احتلال الوهابيين لمكة، لم يكونوا يجرأون على زيارتها أو التقدّم منها، وأنّ جميع الأبنية أو القبب المشادة عليها قد تمّ تهديمها.

وأوّل مايذكر من هذه الأماكن «مولد النبي»، أو الموقع الذي ولدَ فيه سيد الكائنات النبي الأعظم صلوات الله عليه. وهو يقول: إنّه وجد العمال يعيدون بناء المبنى الذي كان مشيداً فوقه. وقد وجد حفرة صغيرة في الوسط، قيل لهُ إنّها البقعة التي كانت أمّ النبي جالسة فيها، حينما جاءها المخاض فولدته. والمقول انّ المكان كلّه كان بيت عبد الله بن عبد المطلب والد النبي.

ثمّ يذكر «مولد ستنا فاطمة» أو المكان الذي وُلدت فيهِ الزهراء البتول سيِّدة نساء العالمين، ويوجد هذا «المولد»، على مايقول بيركهارت، في بناية حسنة مبنيّة بالحجر، يُقال أنها كانت بيت أمها خديجة الكبرى، في شارع صغير يسمّى «زقاق الحجر». ويؤدي سلم صغير إليهِ عندَ الدخول، لأنه تحتَ مستوى الشارع، وتوجد فيهِ بقعتان محددتان؛ احداهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام، والثانية كانت تجلس فيها لتدير رحاها وتطحن الحب. ويقول: وفي جناح بالقرب من ذلكَ توجد حجرة صغيرة، كان يجلس فيها النبي عليهِ السلام، حينما كان جبريل ينزل عليهِ بالوحي، ولذلكَ كانت تسمى «قبة الوحي».

ويذكر بعد ذلكَ «مولد الإمام علي» في الحارة المسماة «شعب علي»، ويقول بيركهارت: إنّ هذه عبارة عن مسجد صغير توجد حفرة في فنائه

لتدلّ علىٰ البقعة التي ولد فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٥١)[٤٨]، وهذا اشتباه واضح، إمّا من بيركهارت الذي ربّما اختلط الأمر عليه، أو لعلّه من اشتباهات العوام، اذ من المعروف أنّ الإمام علياً عليه السلام هو وليد الكعبة.

ويشير بيركهارت بعد ذلك إلىٰ «مولد سيدنا أبا بكر»، الذي يقول انه ضمن مسجد صغير يقع في مقابل الحجرالذي كان يحيى النبي صلى الله عليه وآله عند مروره به، ويقول كذلك انّ هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات، لكن ساحته مغطاة بسجادة إيرانية، ويعلّق بعد ذلك فيقول انّ جميع هذه «الموالد» كانت قد أعيد بناؤها وترميمها، بعد اخراج الوهابيين من مكّة، في تلك الأيام، عدا «مولد النبي» الذي كان يجري بناؤه مجدداً، وتشارك في سدانة هذه الأماكن المقدسة عدّة أسر شريفة.

وقد ألفى بيركهارت انّ «مولد أبي طالب»، في محلة المعلا، قد تمّ تهديمه عن آخره، وهو يتوقع ان لا يُعاد بناؤه من بعد ذلك أيضاً. كما وجد الوهابيين قد هدموا القبة التي كانت مشيدة على قبر «سيدتنا خديجة» ولم يعد بناؤه أيضاً، مع انّ الحجاج وسائر الناس كان من المعتاد أن يزوروه بانتظام، لا سيما في أيام الجمع صباحاً، ويقع هذا القبر في المقبرة الكبيرة الموجودة في محلة «المعلا»، وهو محاط بجدار مربّع ليس فيهِ مايلفت النظر، سوى حجر حفرت عليه آية الكرسي بخط كوفي.

وعلى مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنة والدة النبي صلى الله عليه وآله.

وكان مغطّى بحجرٍ حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفي قديم. وممّا يذكره عن هذه المقبرة انه وجد في نهاية كل قبر من قبورها تقريباً نباتاً من نباتات (الصبر) قد زرع، ليدل على الصبر الذي يجب ان يتحلّى به الموتى، قبل أن يبعثوا في يوم المحشر[٤٩].

وهناك أماكن كثيرة أُخرى،

خارج مكة، يأتي بيركهارت على ذكرها، ويشير إلى قداستها، كجبل أبي قبيس، وقمتيه؛ «مكان الحجر» و «مكان شق القمر»، و «جبل النور»، و «جبل ثور»... الخ.

بيت الله الحرام

ويصف بيركهارت في الجزء الأوّل من رحلته بيت الله الحرام بالتفصيل، فيأتي على كلّ شيء فيه، بحيث يستغرق وصفه مايزيد على خمسين صفحة.. ومن طريف مايورده بيركهارت، في هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. لكنه يقول انّ أهم الأبواب كانت: باب السلام الذي يجب ان يدخل منه كل حاج، وباب العباس، وباب النبي، وباب علي، هذه كلّها من الجهة الشمالية. أمّا الشرقية فأهمّ أبوابها؛ باب الزيت، وباب العشرة، وباب الصفا، وباب الشريف، ثمّ باب إبراهيم، وباب العمرة في الجنوب، وباب الزيارة في الجهة الغربية. ومعظم هذه الأبواب لها عقود عالية مدببة[٥٠].

ويستطرد في هذا الفصل في وصف محيط المسجد الحرام من الخارج، الذي كانت تزينه سبع منارات، كما ويتحدّث عن سدنة البيت الحرام، والطواشين الذين يقومون بواجبات الشرطة، في داخل الحرم الشريف، علاوةً على قيامهم بغسل أرضية الكعبة وكنسها يومياً.. ويعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكّة على مايلاحظ، بحيث يكون مخولاً بالجلوس مع الشريف والباشا والحاكم... ومعظم هؤلاء من العبيد السود. وبعضهم من الهنود[٥١].

وعلى عادته في التقصّي، يأتي بيركهارت كذلك على ذكر الكعبة المشرفة، فيقول؛ انها تفتح ثلاث مرات في السنة فقط، في اليوم العشرين من رمضان، واليوم الخامس عشر من ذي القعدة، والعاشر من محرم الحرام[٥٢].

ويتمّ ذلك عادة بعد طلوع

الشمس بساعة واحدة، بنصب سلّم فيما يقرب من الباب الكبير، وحالما يتمّ ذلك تتدفق عليه جموع المسلمين المحتشدين في أسفله، وسرعان ماتمتلىء بهم داخلية الكعبة نفسها... ويقول بيركهارت انه لم يستطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق، لأنّ حرارة المكان كانت مرتفعة بحيث لم يحتملها، وأوشكَ أن يخرّ مغشيّاً عليه منها.

وبعد أن يصف بيركهارت داخلية الكعبة وأستارها، وقد زارها هو مرّتين، في يومي ١٥ ذي القعدة و ١٠ محرم الحرام، فشاهد في المرّة الأخيرة أنّ الستائر الجديدة التي بعث بها محمد علي باشا من القاهرة قد علّقت، فكان قماشها ثميناً، ونسجها أدق من نسج الكسوة السوداء التي تغطّي الكعبة من الخارج. أمّا الستائر القديمة التي كان قد مرّ عليها أكثر من عشرين سنة، فقد بيعت علناً للمتمكنين بسعر ريال واحد، لكلّ قطعة مساحتها ست بوصات مربعة[٥٣].

ملاحظات حول سكان مكّة

وفي رحلته التفصيلية، يخصص بيركهارت مايزيد على سبعين صفحة منها، للتحدّث عن سكّان مكّة وطبقاتهم وطباعهم، مع أحوالهم الإجتماعية والإقتصادية وغير ذلك.

فهو يقول أوّلاً انّ سكان مكّة يمكن أن يُقال عنهم كلّهم انهم غرباء وأجانب عنها. لأنّ قبائل قريش الأصلية التي كانت تسكنها قد تفتتت وهاجرت إلى الخارج، بحيث لم يبق لها ذكر يعتدّ به في مكّة. على أنّ محيط مكّة وما جاوره مازال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدوية على الأخص. وقد كانت توجد في مكّة على أيام بيركهارت ثلاث أُسر قرشية معروفة فقط، وكان يرأس احداها نائب الحرم. أمّا أكثر طبقات السكان فقد كانوا من أهالي اليمن وحضرموت، وكان يليهم في العدد أبناء الهنود المستوطنين والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان

هناك أيضاً مكيون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردي. ومن كلّ بلد مسلم آخر تقريباً.

على أنّ أقدم السلالات المكيّة، التي بقيت في مكّة كذلكَ، هي سلالة الشرفاء الأصليين، الذين ينتمون إلى الدوحتين الحسنية والحسينية، من أبناء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ يأتي بيركهارت على وصف أنواع الشرفاء في داخل الحجاز وخارجه، ويقول انّ تقاسيم الشرفاء في مكّة هي تقاسيم جميلة مقبولة تقارب تقاسيم البدو في شكلها، ولا سيما في الوجه والعيون والأنف والأقنى[٥٤].

وبعد أن يصف لباس المكيين بالتفصيل، يتطرق إلى اقتناء الجواري الحبشيّات، ثمّ يصف حالة مكّة الإقتصادية باسهاب.. ويعرّج إلى ذكر مايقترفه المكيّون، وهو آسف، من أنواع الفساد والفجور... وهو يسهب في ذكر ذلك، على أننا لا نعرف مقدار الصحة في كلامه.

على أنه مع جميع مايذكره من السيئات يشير إلى الصفات الحسنة عند المكيين كذلك مثل السخاء والكرم، ومحبّة الغريب ومساعدته، والإمتناع عن السرقة والغشّ.

ويتطرّق بيركهارت إلى الناحية العلمية في مكّة، فيقول انّ العلم وتعلمه لا يمكن أن يؤمل ازدهارهما في مكان يفكر فيه الجميع بالحصول على الربح والمغنم أو الجنة. وهو يعتقد انّ مكّة في يومه ذاك لم تكن في مستوى البلاد الإسلامية الأُخرى، من هذهِ الناحية، وحتى من ناحية العلوم الدينية. ويروي عن الفاسي المؤرخ انّ مكّة كان فيها إحدى عشرة مدرسة في أيامه، بجانب عدد من الرباطات وغيرها. بينما لم تكن توجد ولا مدرسة واحدة تُلقى فيها المحاضرات على مايقول، وليس فيها مكتبة عامة ملحقة بالحرم الشريف أيضاً. ومع عدم اهتمام المكيين بالكتب والتعلّم فانّ لغة مكّة، على مايقول بيركهارت ماتزال أكثر نقاء ورقة في اللفظ والتركيب، من لغة

أي مكان آخر يتكلّم أهله العربية في العالم(٥٥).

في أعقاب ذلك، يسلّط بيركهارت الأضواء على حكومة مكّة والشرفاء، إذ كانت مكّة والطائف وقنفذة وينبع، على مايقول، تابعة لشريف مكّة، قبل أن يحتلها الوهابيون، والمصريون من بعدهم، في أوائل القرن التاسع عشر.. وقد مدّد الشريف نفوذه إلى جدّة، لكنّها بقيت منفصلة عن ممتلكاته اسميّاً؛ لأنّها كان يحكم فيها «باشا» ينتدب لحكمها من استانبول فيقسّم وارداتها مع الشريف. وكان الشريف يتربّع على دست الحكم في مكّة بالقوة عادة، أو بنفوذه الشخصي، وموافقة أسر الشرفاء القوية.

وبعد أن يأتي بيركهارت على تأريخ الكثير من الشرفاء وأعمالهم، ولا سيما الشريف سرور والشريف غالب، يبدأ بوصف لباسهم ومواكبهم عند الخروج للصلاة وغيرها، ويذكر بالمناسبة انّ الوهابيين حينما احتلوا مكة أجبروا الشريف على الخروج ماشياً إلى المسجد الحرام في أوقات الصلاة، لأنّ الركوب والفخفخة لا يناسبان الخشوع والورع، الذي يجب أن يبديه الحاج أو المصلي بجوار الكعبة(٥٦).

وبعد خوض مفصّل في عادات الشرفاء واهتماماتهم.. ومايتسمون به من خصال كالاهتمام الزائد الذي يولونه للسخاء والضيافة والإيمان بالعقيدة الحقة.. فانّ بيركهارت يعلّق انّ المكّيين يشككون كثيراً في نزاهة الشرفاء واستقامتهم، ثمّ يذكر انّ القسم الأعظم من شرفاء مكة نفسها، وخاصة الشرفاء الحاكمين من ذوي زيد، يحتمل جدّاً أن يكونوا من الزيدية الذين يكثر أتباعهم في اليمن، ولا سيما في جبال صعدة، لكن الشرفاء يكذبون ذلك، ويتمسكون بالمذهب الشافعي الذي يتمذهب به سكان مكّة معظمهم، أمّا الشرفاء المقيمون في الخارج فلا ينكرون ذلك(٥٧).

الحج مناسك.. وقوافل

وفي الجزء الثاني من رحلته، يخصص بيركهارت فصلاً كبيراً للحج ومناسكه وجميع مايختص به من شؤون. وأوّل مايبدأ به الاشارة إلى أنّ المسلمين قد قلّت حماستهم لتأدية الواجبات الدينية المفروضة عليهم، في تلك الأيام، ومن جملتها الحج الذي أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين، تحول دون تجشمهم المصاعب من أجله. وصار قسمٌ كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به.

ويشير بعد ذلك إلى أنّ عدداً غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا إلى مكّة، قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر، لأنّ تقضية رمضان المبارك في البلد المقدّس فيه كثير من الأجر والثواب. ثمّ يأخذ بوصف مواكب الحجاج وقوافلهم التي تأتي من البلاد الإسلامية المشهورة، ولا سيما سورية ومصر.

فيقول: إنّ موكب الحج القادم من سورية كان على الدوام من أقوى المواكب، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجاج بأنفسهم من بغداد. ويبدأ الموكب الشامي في العادة بالتحرك من الاستانة، فيجمع في طريقه حجاج المدن والبلاد الأناضولية والسورية حتى يصل إلى دمشق الشام، حيث يمكث عدّة أسابيع. وفي خلال الطريق الممتدمن الاستانة إلى الشام كلّه تُؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل ومافيها من حجاج، وتصحب الموكب من بلدة إلى أُخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون. وفي كل محطّة أو خان كان يجد الحجاج البرك والأحواض العامة من الماء، التي كان السلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم والعناية بهم. ويقابلون بمظاهر البهجة والفرح في كلّ مكان..

وكان الموكب الشامي على انتظام تام في سيره وسائر شؤونه، فانّ باشا الشام أو منْ يُنيبه من ضباط كان يرأسه على الدوام، فيعطي الإشارة في

الحل والترحال بإطلاق الرصاص. وتتقدّم الموكب في الطريق ثلة من الخيّالة، كما تسير خلفه ثلّة أُخرى لرعاية المتخلفين. ويجتمع في ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة في جماعات تسير سويّة على طول الطريق.

ويتعاقد الحجاج عادة معَ أحد المقومين، وهو يتعهّد بتجهيز الدابة إلى الحاج، مع سائر مايحتاج إليه، خلال السفر، ولذلك يلاحظ كل عشرين أو ثلاثين حاجاً مع مقومهم الخاص، الذى يهيئ لهم الخيم، ويجهّز الخدم، فيوفر على الحجاج أتعاب السفر، ولا سيما بتحضيره شؤون الطعام والقهوة والماء وما أشبه لهم. ولقد كانت أُجرة الحاج عند المقوّم في ١٨١٤ مع اعاشته تبلغ مئة وخمسين ريالاً من دمشق إلى المدينة، وخمسين ريالاً من المدينة إلى مكّة[٥٨].

أمّا قوافل الحجاج المصريين وموكبهم فتسير على نفس النظام الذي تسير عليه القوافل السورية، لكنها نادراً ماتساويها في العدد، لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط، إلى جنب الحرس العسكري، ويكون طريقها على جانب أكبر من الخطر والمشقة، لأنّ الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمرّ من ديرات قبائل شرسة قويّة الشكيمة، كثيراً ماتحاول قطع الطريق على القوافل بالقوّة. وكان الموكب المصري في ١٨١٤ يتألف من الجند المرافق للمحمل[٥٩] وحاشيته مع بعض الموظفين الرسميين. لأنّ جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس.

وفي ١٨١٦ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر وسراتها، وقد جاء أحدهم بمئة وعشرة جمال، لتحمل عفشه وحاشيته، مع ثماني خيم كبيرة. ولابدّ من أن تكون نفقات سفره قد بلغت حوالي عشرة آلاف دينار، وكان مع الموكب أيضاً حوالي خمسمائة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى.. والغريب انّ بيركهارت

يقول انه شاهد معهم جماعة من البغايا والراقصات، وانّ خيم أولائي النسوة كانت أجمل خيم الموكب وأكثرها زينة وتزويقاً[٦٠].

ويقول بيركهارت كذلك أنّ موكب الحج الإيراني الذي كان يخرج من بغداد، في سالف الأيام، فيأتي إلى مكّة عن طريق نجد، قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجيء الموكب الشامي من سورية. وبعد ان عقد عبد الله بن سعود صلحاً مع طوسون باشا (بن محمد علي) في ١٨١٤، كان العدد القليل من الحجاج الإيرانيين القادمين عن طريق البر، قد عبروا من بغداد إلى الشام، وساروا مع الموكب الشامي بصحبة عكامين من بغداد.

ومن الجدير بالذكر، على مايقول بيركهارت، إنّ الإيرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام أن يأتوا إلى مكّة. فبعد أن أُعيد بناء الحرم الشريف في ١٦٣٤م أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يُسمح لأي إيراني من «شيعة علي» بتأدية الحج أو الدخول إلى بيت الله الحرام. فبقي التحريم سارياً عدّة سنوات، غير انّ المال الذي بذله الإيرانيون سرعان مافتح الطريق أمامهم إلى الكعبة وعرفات.

وقد توقف مجيء الموكب المغربي للحجاج مدّة سنين عديدة، وقد أصبح قدومهم على دون هدى أو انتظام. وكان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراكش، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس وطرابلس، ويجمع الحجاج في طريقه من كل منطقة. ويسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر إلى درنة، ومن هناك يسير مع الساحل المصري إلى القاهرة، عن طريق الاسكندرية. ولا يرافق هذا الموكب إلّا عدد قليل من الجند، لأنّ الحجاج يكونون مسلحين تسليحاً حسناً في العادة.. ويقول بيركهارت؛ يوجد مع موكب الحجاج المغاربة عادة أُناس من أهالي جزيرة جربا، الذين يعتقد أنهم من شيعة

الإمام علي، كما يقول بيركهارت.

وكان يأتي من اليمن موكبان للحج عن طريق البر، من قبل، وكان أحدهما يتحرك من صعدة فيسير في المناطق الجبلية إلى الطائف ومنها إلى مكّة. أمّا الموكب الثاني فقد كان يتألف من حجّاج يمانيين، مع حجاج إيرانيين وهنود يصلون في العادة إلى موانئ اليمن. وقد أبطل هذا الحج في ١٨٠٣، بعد أن كان من المواكب الغنية بالسلع المختلفة والبُن، وبعد أن كان يرأسه أئمة اليمن. وقد كان لهذا الموكب، كما كان لغيره، مكان خاص في مكّة المكرمة ينزل فيه..

أمّا الحجاج الباقون فيأتون إلى مكّة عن طريق البحر من اليمن وجزر الهند الشرقية، وهؤلاء هم مسلمو الهند، وكشمير، وكجران، والإيرانيون القادمون عن طريق الخليج والعرب من البصرة ومسقط وعمان وحضرموت.. فضلاً عن القادمين من سواحل ملينديا وموميا سا الذين يطلق عليهم «السواحليون»، ويأتي مسلمو الحبشة وسائر بلاد العبيد بالطريق نفسها كذلك..

ويأخذ بيركهارت بوصف مناسك الحج بالتفصيل.. ويقدّر عدد الحجاج الذين وقفوا في عرفات (سنة ١٨١٤) بسبعين ألف حاج. وقد كان مخيم الحجاج هناك يبلغ طوله بين ثلاثة وأربعة أميال، وعرضه حوالي الميلين. وهو يقول في هذا الشأن أنّه ليس هناك، على وجه الأرض، بقعة في مثل هذا الحجم الصغير يقف عليها مثل هذا العدد من الناس، الذين يتكلمون بهذا العدد الكبير من اللغات واللهجات. ويقول كذلكَ انه شخصياً لاحظ وجود أربعين لغة بين الحجاج، وأنه كان هناك عدد آخر من اللغات الأُخرى بطبيعة الحال..[٦١].

ونجد لزاماً التنويه إلى أنّنا عزفنا عن ذكر الكثير من الملاحظات والمعلومات المهمة، التي ذكرها بيركهارت، خشية الاطالة، مكتفين بالاحالة إلى مضانها للمستزيد.

الهوامش :

(١) جعفر الخياط : مكة في المراجع الغربية ، مقال مفصل منشور ضمن موسوعة العتبات المقدسة ، ج ٢ ، قسم مكّة ، بإشراف جعفر الخليلي ، ط ٢ ، بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م) : ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، فصل «المدينة المنورة في المراجع الغربيّة ، ج ٣ ، قسم المدينة : ٢٤٢ .

(٣) خير الدين الزركلي :«قاموس الأعلام» ـ ٨ : ٣٣٤ (ط ٧ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٦م) ، نجيب العقيقي :«المستشرقون» ـ ٢ : ٥٢ (ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠) .

(٤) زين نور الدين زين : «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧١ : ٣٤ .

(٥) فيما عُرف الأولان بعدائهم السافر للإسلام ، أقام الثاني في مصر بين سنتي (١٨٣٣ ـ ١٨٣٥) متستراً بالإسلام وراء اسم «منصور أفندي»!

(٦) ادوارد سعيد : «الاستشراق : المعرفة . السلطة . الإنشاء» تعريب كمال أبو ديب ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٢ : ١٤٥ .

(٧) المرجع نفسه : ١٢٠ .

(٨) د . صالح زهر الدين :«الإسلام والإستشراق» ، بيروت ، ١٤١٢هـ ١٩٩١ : ١٠٧ .

(٩) أدوارد سعيد : م . س ؛ ١٢٤ .

(١٠) د . صالح زهر الدين : م . س ؛ ١٠٨ .

(١١) المرجع نفسه : ١١٠ ، ١١١ .

(١٢) للمزيد يراجع كتاب الإستشراق لأدوارد سعيد ، فصل «الجغرافية التخيلية» صفحة : ٨٠ ومابعدها .

(١٣) بيتر برينث : « بلاد العرب القاصية ؛ رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب » ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، وأحمد غسّان سبانو ، بيروت ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م : ١٠٨ .

(١٤) رلى الزين : «اوروبيون في الشرق» ، الحلقة الخامسة ، صحيفة الحياة (لندن) الإثنين ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٩٢ ـ ٢٥ شوال ١٤١٢ هـ . العدد (١٠٦٧١) : ١٥ .

(١٥) بيتر برينث : م . س

(١٦) رلى الزين : م . س

(١٧) بيتر برينث : م . س ، ورلى الزين : م . س أيضاً .

(١٨) د . حلمي خضر ساري :«صورة العرب في الصحافة البريطانية» ، ترجمة عطا عبد الوهاب ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨ : ٣٢ .

(١٩) بيتر برينث : م . س ؛ ١٠٨ .

(٢٠) المرجع نفسه .

(٢١) صحيفة الحياة: م. س

(٢٢) للمزيد يراجع كتاب :«صورة العرب في الصحافة البريطانية» م. س: ٤٤ هامش(٩٥).

(٢٣) صحيفة الحياة: م. س

(٢٤) بلاد العرب القاصية: م. س؛ ١٠٩.

(٢٥) د. محمود السمرة:«ليدي هسترستانهوب» تعريف بكتاب الشهر، مجلة العربي الكويتية، العدد (٩٩) ـ شوال ١٣٨٦هـ ـ شباط ١٩٦٧: ١٣١ ومابعدها.

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) من القاهرة كتبت ستانهوب إلى أحد أصدقائها تقول :«لقد كان محمد علي حفيّاً بي، ولم يكن يستقبلني إلّا واقفاً، وقد سمح لي أن أزوره متى أردت، ولم يرفض لي طلباً طيلة اقامتي في ضيافته، حتى انه سمح لي أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم عندما طلبتُ منه ذلك» تُراجع مجلة العربي؛ المرجع السابق: ١٣٢.

(٢٨) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٩.

(٢٩) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٠.

(٣٢) للمزيد يُراجع المرجع نفسه: ١١١.

(٣٣) المرجع نفسه.

(٣٤) مكة في المراجع الغربية؛ م. س ٢: ٢٦٤.

(٣٥) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٣٦) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١١.

(٣٧) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٣٨) بلاد العرب القاصية؛ م.س: ١١٨

(٣٩) مكة في المراجع الغربية؛ م. س.

(٤٠) بلاد العرب القاصية؛ م. س.

(٤١) مكة في المراجع الغربية؛ م. س، ٢: ٢٦٣ ـ ٦٢٤.

(٤٢) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٥.

(٤٣) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٤٤) مكة في المراجع الغربيّة؛ م. س.

(٤٥) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٥.

(٤٦) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٨.

(٤٧) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٩.

(٤٨) المرجع نفسه، ٢: ٢٧١.

(٤٩) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٣.

(٥٠) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٤.

(٥١) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٧.

(٥٢) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٥٣) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٥.

(٥٤) للمزيد من الإطلاع على التفصيلات أُنظر المرجع السابق، ٢: ٢٧٥، ومابعدها.

(٥٥) يشير الرحالة الهولندي هورغرونيه، الذي زار مكة عام ١٨٨٤، إلى أنّ الكعبة تفتح في أيام ١٠ محرم الحرام، و ٢٧ رجب، و ١٥ شعبان، وبعض أيام رمضان وفي أشهر الحج، لكنها قد تفتح في أيام غير هذه للأثرياء الغرباء الذين يدفعون مبالغ غير قليلة عن ذلك. يراجع المرجع السابق ٢: ٣٠٩.

(٥٦) المرجع نفسه، ٢: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٥٧) المرجع نفسه، ٢: ٢٨٠.

(٥٨) المرجع نفسه، ٢: ٢٨٣.

(٥٩) المرجع نفسه، ٢: ٢٨٥.

(٦٠) المرجع نفسه، ٢: ٢٨٦.

(٦١) المرجع نفسه، ٢: ٢٨٩.